جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

التأويل وعلاقته بلغة النص عند المفسرين

دراسة لغوية نصية في تفسيري "الزمخشري" و"ابن عاشور"

بحث لنيل درجة الدكتوراه في العلوم اللغوية

مقدَّم من الباحث

محمد إبراهيم أحمد إبراهيم

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور
محمد السيد سليمان العبد
أستاذ العلوم اللغوية
كلية الألسن – جامعة عين شمس

الدكتورة
سلوى محمد سليم العوا
مدرس العلوم اللغوية
كلية الآداب – جامعة عين شمس

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

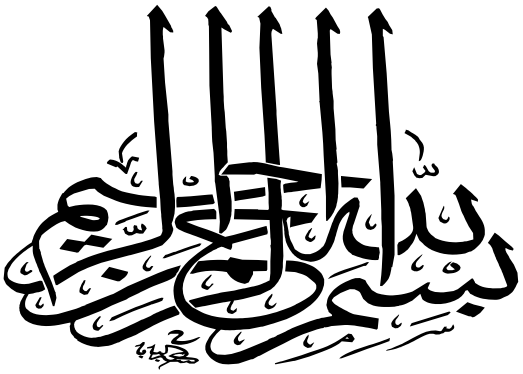

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي
تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

(سورة الأحقاف، الآية: ١٥)

جامعة عين شمس

كلية الآداب

قسم اللغــة العربيـة وآدابها

اسم الطالب: محمد إبراهيم أحمد إبراهيم

الدرجة العلمية: الدكتوراة

القسم التابع له: اللغة العربية وآدابها

اسم الكلية: كلية الآداب

الجامعة: عين شمس

سنة التخرج: .....

سنة المنح: .....

رسالة دكتوراة

اسم الطالب: محمد إبراهيم أحمد إبراهيم

عنوان الرسالة: التأويل وعلاقته بلغة النص عند المفسرين ، دراسة لغوية نصية في تفسيري " الزمخشري "و"ابن عاشور"

لجنة الإشراف

الاسم / ..... **الوظيفة:** .....

الاسم / ..... **الوظيفة:** .....

تاريخ البحث / / ٢٠م

الدراسات العليا

ختم الإجازة أجيزت الرسالة / / ٢٠م

موافقة مجلس الكلية
/ / ٢٠م

موافقة مجلس الجامعة
/ / ٢٠م

الإهداء

إلى

والدي رمز الإباء ...

إلى

والدتي رمز العطاء ...

إلى

مروة رمز الوفاء ...

إلى

معاذ وفريدة نوراً من السماء ...

محمد إبراهيم أحمد

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر لأستاذيَّ الفاضلين، **الأستاذ الدكتور/ محمد السيد سليمان العبد أستاذ العلوم اللغوية، كلية الألسن – جامعة عين شمس، والدكتورة/ سلوى محمد سليم العوا، مدرس العلوم اللغوية، كلية الآداب – جامعة عين شمس،** على ما بذلاه من جهد وسعة صدر في توجيهي ونصحي والصبر على هفواتي.

وأتقدم بالشكر لعضوي لجنة المناقشة **الأستاذ الدكتور/ علي محمد هنداوي، أستاذ العلوم اللغوية، كلية الآداب – جامعة عين شمس، والأستاذ الدكتور/ محمد أحمد حماد، أستاذ علم اللغة، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة،** على ما بذلاه من جهد في قراءة هذه الرسالة وتقديم الملاحظات البنّاءة.

وفي النهاية أتقدم بالشكر **للدكتورة/ إيمان عزيز سليمان، مدرس اللغة العربية بمعهد اللغة العربية الجامعة الأمريكية بالقاهرة،** على ما قدمته من آراء دعمت وجهة نظر الباحث.

محمد إبراهيم أحمد

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	أ-ك
الفصل الأول : الدراسات التمهيدية	**٥٣:١٠**
المبحث الأول : مصطلح التأويل في الثقافة العربية	١١
المبحث الثاني : القرآن الكريم ولغة النص	٢٢
المبحث الثالث : الزمخشري مؤولا في" الكشاف"	٣٧
المبحث الثالث : ابن عاشور مؤولا في" التحرير والتنوير "	٤٥
الفصل الثاني : السياق وأثره في التأويل	**٨٢:٥٣**
تقديم	٥٥
المبحث الأول : النص والسياق	٥٩
المبحث الثاني : أثر السياق في تأويل القرآن	٧٦
الفصل الثالث : سياق الحال وأثره في التأويل عند الزمخشري وابن عاشور	**١٣١:٨٣**
تقديم	٨٣
المبحث الأول : المتكلم	٨٦
المبحث الثاني : المتلقي	٩٥
المبحث الثالث : زمان المتكلم ومكانه	١٢٢
المبحث الرابع : الأحداث المصاحبة	١٢٧

الفصل الرابع : أثر فهم مظاهر السبك النصي على تأويل القرآن	**٢٥٣:١٣٥**
تقديم	١٣٣
المبحث الأول : السبك بين لسانيات النص والتراث العربي	١٤٢
المبحث الثاني : الإحالة وأثرها في التأويل	١٥٣
المبحث الثالث : الحذف	١٨٣
المبحث الرابع : العطف	١٩٧
المبحث الخامس : التكرار	٢٣٤
الفصل الخامس : الحبك وعلاقته بالتأويل	**٢٨٥:٢٥٨**
تقديم	٢٥٦
المبحث الأول : الحبك بين علماء العرب القدامى وعلماء لغة النص	٢٥٩
المبحث الثاني : الحبك وعلاقته بتأويل النص القرآني	٢٦٨
الفصل السادس : التأويل وعلاقته بالكفاءة الإعلامية للنص القرآني	**٣٤٦:٢٨٨**
المبحث الأول : المقصود بالكفاءة الإعلامية للنص القرآني	٢٨٧
المبحث الثاني : الكفاءة الإعلامية للعناصر الإحالية	٣٠٠
المبحث الثالث : التأويل ومشكلات المعنى في النص القرآني	٣٢٧
الخاتمة	**٣٤٨: ٣٥٢**
الفهارس العامة	**٣٥٥: ٣٩١**
فهرس: الآيات القرآنية	٣٥٦
فهرس: الأحاديث النبوية	٣٦٣
فهرس: الأبيات الشعرية	٣٦٤
فهرس: المصادر والمراجع	٣٦٥

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ تمرسنا باللغة قراءة وكتابةً وفهمًا وإفهامًا قد يخدعنا، فنتوهم أننا قادرون على ترجمة ما تتصور عقولنا من أفكار، وما يختلج في صدورنا من عواطف، وأنَّ كل من يسمعون كلامنا أو يقرؤونه يفهمون حق الفهم ما نريد إفهامهم إيَّاه، والحق أنَّ المسألة أعقدُ مما نتوهم، وأنَّها على سهولتها المتصوَّرة – متداخلةُ العناصر، يشتبك فيها قصد المرسل باستنباط المتلقي، وقول صاحب النص، بعد تصوره لما يريد أن يقول باستنتاج قارئ النص مما يقول ولهذا لم يكن بد من تحليل المسألة للوقوف على حقيقتها.

وفي هذا البحث لا يعنينا الجانب الأول من المسألة، أي لا تعنينا قدرة المتكلم على تصوير ما يتصور وترجمة ما يحس، وإنما يعنينا الجانب الثاني، وهو قدرتنا – ونحن نقرأ النص – على فهم ما نقرأ، خصوصًا إذا كان هذا النص هو القرآن الكريم ذلك المنبع الذي انبثقت منه الحضارة الإسلامية كلُّها وهو ما حفظ لها سمات وخصائص تتشابه في أصولها وتختلف في فروعها، فتجري فيها ملامح متوافقة يطبعها بطابع واحد، فقد كان القرآن الكريم هو القطب الذي تدور حوله العلوم، فشق في كل علم مجرى يتشعب في اتجاهات مختلفة تعود لتصب في قناة واحدة.

هذا النصُّ القرآني الذي يقف له المرء إجلالا كان دافعًا لجمهرة من العلماء أوقفوا نتاج عبقريتهم خدمة لهذا الوحي؛ فكتبوا في تفسيره، وتفننوا في معرفة المحكم والمتشابه منه، وبرعوا في عرض وجوه إعجازه؛ إذ هو المعين العذب الذي لا ينضب نميره، ما زال ينهل منه الباحثون وسيبقى هكذا ما بَقِيَتْ الحياة.

والأصل في ذلك – فيما أرى – هو ظاهرة التأويل؛ فبنيات النص القرآني مستويات؛ مستوى لا يعذر أحد بجهله: الحلال والحرام، ومستوى تعرفه العرب من لغاتها، ومستوى لا يدركه إلا العلماء، ومستوى لا يعلمه إلا الله. قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي: "إن في القرآن ما لا يُعْقَل أصلاً كفواتح السور، فإن الناس قالوا:

إن في القرآن ما يعرفه الجمهور، وفيه ما لا يعرفه إلا العرب، وفيه ما لا يعرفه إلا العلماء بالشريعة، وفيه ما لا يعرفه إلا الله" [1]

فيتبين من ذلك، أن النص القرآني الكريم مجالٌ مفتوح الدلالة قابل للتأويل داخل المعايير الموضوعة، فهو لا يقدم قراءة نهائية مهما كانت المقومات، يمكنها أن تدعي فهم كل شيء، والعلماء أنفسهم الذين يمكن أن يُنْظر إليهم على أنهم قرَّاء مؤولون يقفون عند الأمور التي استأثر الله بعلمها ولا يتجاوزون ذلك.

عنوان البحث ودوافعه:

في ضوء ما سبق جاء عنوان البحث **(التأويل وعلاقته بلغة النص عند المفسرين، دراسة لغوية نصية عند الزمخشري وابن عاشور)**.

واختيار عنوان البحث على هذا النحو يقتضي التعريف بدلالاته وأبعاده وأهدافه، ومن أجل ذلك نُقدِّم الملاحظات الآتية:

أولاً: هوعنوانٌ يجمع بين علمين؛ علم قديم موروث راسخ وهو علم "**التفسير**"، وعلم آخر حديث وافد وهو "**علم لغة النص**"، وهو جمع لا يهدف إلى المقارنة أو المقاربة؛ انتصارًا للموروث، أو تبريرًا لتقبل الوافد – وإنما هو – أي العنوان – محاولة لإقامة حوار علمي بين علمين يتخذان النص اللغوي موضوعًا لهما.

ثانياً: ما الفرق بين التفسير والتأويل؟، لقد اعتمد البحث فرقًا جوهريًا بين التفسير والتأويل، وهو أن التعامل مع النصوص يمر بمرحلتين اثنتين: الأولى **تفسيرية:** ومفادها أن المفسر لا يستطيع أن ينسلخ جملة وتفصيلاً عن الإطار الشرحي التباييني الخارجي لما تقتضيه طبيعة النص، فهو يحاول إعطاء الإطار العام الخارجي للنص، والثانية **تأويلية:** وهي مرحلة تبدأ حين تنتهي مرحلة التفسير، إذ لا يجوز منهجيًا أن يبدأ صاحب من رُزِق ناصية التأويل أن يقتحم عالم النص مباشرةً

---

[1] الشاطبي، أبو اسحاق إبراهيم ، الموافقات في أصول الشريعة تحقيق عبد السلام الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٠.

ما لم تسبقه مرحلة التفسير، والسبب في ذلك أن النصوص ليست كلها متساوية في درجة التأويل فهناك نصوص قابلة للتأويل وأخرى لا يدخلها التأويل، الشيء الذي جعل من القدامى على اختلاف اتجاهاتهم المعرفية ينفردون في تعاملهم مع الإجراء التأويلي في تناولهم للنص القرآني.

ثالثاً: يجمع العنوان إذن بين ثلاثة عناصر هي على الترتيب **(التأويل – علم لغة النص – المفسر)**، وهذه العلاقة تنتج لنا الهدف الرئيس للبحث، إذ إن البحث سيحاول الإجابة على سؤال يحسبه الباحث مهمًا وهو **ما هي الكفايات التي تجعل من قارئ عاديٍّ مؤولاً بليغًا؟**.

لقد استفاد الباحث من مقومات علم لغة النص والخروج منها بكفايات ثلاثة يراها الباحث ذات أهمية في كل من يقرأ نصًا ويريد فهمه ،هذه الكفايات هي على التوالي: **الكفاية اللسانية** إذ يتعين على المؤول أن يكون عالمًا بلغة النص سبكًا وحبكًا، وعلمه هذا هو مايطلق عليه الكفاية اللسانية، إن هذه المعارف كلها معارف لسانية وضعية، وإذا كانت تمثل بالنسبة للمرسل معارف تأسيسية، فإنها بالنسبة للمؤول تمثل معارف معيارية، يحتكم إليها في معالجة خطابات المرسل إذ ينظر فيما إذا كانت هذه الخطابات تجسيدًا للمعيار أم لا، ثم **الكفاية السياقية**، إذ إنَّ الفهم وبلوغ المعنى، وإنجاز التأويل ليس محصورًا في مفردات وجمل النص، بل لابد من فهم واقع الخطاب وملابساته حتى تتصهر البنية الصغرى و تلك البنية الكبرى ويكون الفهم والتأويل، وأخيرًا **الكفاية الاستدلالية**، إذ إننا لإقامة التواصل التام لا نقف في حدود الحكم، استناداً إلى كفاءاتنا اللسانية والسياقية، بأن هذا الملفوظ أو ذاك يحتاج إلى تأويل، بل إننا نحتاج فوق ذلك إلى إتمام التأويل، أي نحتاج إلى تأويل ما حكمنا بأنه يحتاج إلى تأويل. وهذا هو دور الكفاءة الاستدلالية.

رابعاً: هذا عن أبرز مكونات العنوان، فماذا عن سبب اختيار الشطر الثاني: **الزمخشري وابن عاشور**، أو بالأحرى، لماذا هذان المفسران دون غيرهما من العلماء في تاريخ التفسير الإسلامي؟

يجرني هذا السؤال للحديث عن سبب اختياري للبحث عموما، ثم سبب اختياري لهذين المفسرين تحديدا ، فقد دفعني لاختيار هذا الموضوع دوافع منها:

أولاً: أنَّ التراث الإسلامي ولا سيما المرتبط بالوحي الإلهي ارتباطًا مباشرًا، تراثٌ غني لا بحجمه وعدد مؤلفاته ومتونه، ولا بمساحته الزمنية الممتدة، ولا بتنوع فكره، ولكن بنوعية القضايا التي عالجها والمقترحات التي أنجزها، غنيٌ بسبب تعلقه بالوحي المعجز وارتباطه بمتلقى الوحي (الإنسان) وقضاياه المستجدة دومًا ومن دون توقف، هذا الغني جذبني في مرحلة الماجستير والدكتوراه إلى إدراك بعض روابطه وخيوطه المتشبعة.

ثانياً: أنَّ هيمنة الفكر الآخر وحضوره الشديد وتأثيره القوي على اللحظة الحضارية التي نعيشها تجعل من غير الممكن تجاوزه وغض النظر عنه، فهو فينا وجزء منا قد لا نكتشفه، وقد لا نعيه بسبب تلبسه بنا، وتعودنا عليه، ولكن ذلك لا ينفي وجوده بحال من الأحوال، فالمسألة إذن ليست مسألة ترجمة للذات انطلاقاً من الآخر ولا قراءة للتراث من خلال لغة الآخر، ولكن المسألة في عمقها مسألة تفاعل تفرضه الخطة الحضارية، وتستدعيه حتمية الاستمرار التي تقتضي إنجاز التأصيل المطلوب الذي لا يمكن أن يتم من دون إحداث التفاعل الإيجابي المثمر بين العناصر الأصيلة في اللحظة التي نعيشها، وبين مكونات القوة والأصالة في تراثنا، لأن ذلك فيما أعتقد هو السبيل لتأصيل الفكر الإنساني في ولا سيما الفكر الإسلامي. [1]

ثالثاً: لما كانت هذه الأفكار لديَّ فقد كان البحث محاولة لوضع مفهوم للتأويل يستمد عناصره من المنجز المعاصر (لغة النص) في أفق تأصيل ممارسة في الفهم اجتهدت الثقافة العربية الإسلامية متمثلةً في علماء التفسير والبلاغة صوغها وبنائها من خلال تطبيق الكفايات اللازمة لقارئ النص، دعوةً من الباحث للفهم المتجدد للنص القرآني فهمًا ينطلق من فهم الإنسان لواقعه، إذ إن النص القرآني يراعي هذا

---

[1] انظر : الدكتور محمد حسين فضل الله، النص والتأويل وآفاق حركة الاجتهاد، المنطلق، ع ١١٧، شتاء ١٩٩٧ ص٢١.

الواقع بأعرافه وتقاليده ونظمه التي تتفاعل فيما بينها فينشأ عن التفاعل أسلوب المجتمع في الحياة وثقافته وفكره.

رابعاً: ترتبط ظاهرة التأويل في الثقافة العربية الإسلامية بقوله تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧ هذه الآية التي شطر الخوض في تفاصيلها الفكر الإسلامي على الأزمنة إلى تيارات فكرية متباينة أحياناً وفي أحيان كثيرة متصارعة، كان ذلك دافعًا لدى للبحث في قضية تأويل القرآن في التراث العربي.

خامساً: اختار الباحث مفسرين اثنين للتطبيق؛ الأول **الزمخشري** (ت٥٣٨هـ)،والثاني **الطاهر ابن عاشور** (ت١٣٩٣هـ) على افتراض من الباحث أن هذين المؤولين لديهما كفايات التأويل التي افترضها البحث، فالزمخشري يرى أن القراءة التفسيرية للمعنى فعل شمولي بين مواد مختلفة منطلقها النص القرآني، يهدف إلى بناء المعنى، وأما أداوته ومرجعياته فهي ما استخلصه العلماء من علوم تحصلية متنوعة، وابن عاشور الذي قدم لتفسيره بتمهيدٍ وافٍ ذكر فيه مراده من التفسير معتبرًا أن التمسك بما قدمه الأقدمون تعطيل لإعجاز القرآن وتجميد لحكمه ومن هنا كان تفسير ابن عاشور قائمًا على علاقة مركبة من القارئ والنص، لأن النص القرآني في كثير من التفاسير يهمل القارئ المرتبط بعصر معين فأراد ابن عاشور لتفسيره أن يكون القارئ المفسر حاضراً بثقافته وثقافة عصره؛ إذ إ القرآن معين لا ينضب وهو ما يتفق مع منهج البحث.

منهج البحث:

في سياق هذه الأفكار يندرج هذا البحث على وعي منه بالمنزلقات التي يمكن أن يقع فيها، فهو يطمح لإيجاد تزاوج في النظر، إنه يرجو أن يمزج التراث بالمنجز المعاصر في مجال معالجة النصوص.

من أجل هذا اعتمد البحث على منهج الوصف، وقد استخدمه البحث لعرض كفاءات المؤول التي يروم الباحث تأصيلها في كل قارئ للنصوص وقد كان هذا الوصف منبثقًا من علم لغة النص، في تحديد "**الاتجاه النصي التواصلي التداولي**"، هذا الاتجاه الذي طور مقولاته في ضوء علم التواصل والتداوليات، وترتكز أبحاث هذا التوجه على أساس نظرية التواصل، ويعد السياق التواصلي بمكوناته المختلفة من أهم الموضوعات المتناولة فيها، فـ "الوحدات التي يتكون منها النص جملا كانت أم غير جمل ليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها البعض في سلسلة، إنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق". [١]

والمنهج الثاني المستخدم في هذا البحث هو المنهج التحليلي، وقد استخدم في تحليل تأويلات كل من الزمخشري وابن عاشور، متبعًا الظواهر التي تتماشى وطبيعة البحث، وذلك بحكم أن الطابع الذي يميز البحث من وجهة نظري هو الطابع العقلي وليس النقلي محاولين في ذلك أن نسير جنبًا إلى جنب مع الجانب التأويلي في ما يخص السياقات القرآنية. وبقي أن أشير هنا مؤكدًا أن الدراسة لا تقوم على الرصد والإحصاء وإنما تقوم على الاختيار والانتقاء؛ إذ رصد وتتبع كل فصلٍ من فصول الرسالة يحتاج إلى دراسة مستقلة، وبناءً على هذا فإن البحث يرنو إلى أن يضم صوته إلى ما دعا إليه الشيخ حسين فضل الله من إعادة النظر فيما استهلكناه من علوم ونظريات تركها لنا التراث[٢]، من أجل الوقوف على مواقع الخلل فيما اعتمدوه حتى لا تكون حركتنا العلمية الثقافية حركة تقليد واستسلام للماضي الذي قد يكسبه مرور الزمن قداسة لا يملكها. [٣]

إن البحث يهدف إلى فهم متجدد للقرآن ينطلق من فهم الإنسان لواقعه من خلال الانخراط الفعلي في هذا الواقع، معايشة للناس وتعاملاً معهم ثم فهم الإنسان

---

[١] جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ص٢١٩.

[٢] انظر : الدكتور محمد حسين فضل الله، النص والتأويل وآفاق حركة الاجتهاد، ص٢١.

[٣] انظر:المرجع السابق، ص٢١.